الباب الأول

الفصل الأول

فتح عظيم

حين أذن الله أن تفتح بلاد الأندلس، وأن يدخلها الإسلام هيأ لهذا العمل رجلاً قوي الإيمان، فنهض لهذه المهمة الكبيرة.

ذلك الرجل، هو موسى بن نصير.

ولد الفاتح الشجاع في السنة التاسعة عشرة من الهجرة يوم فتح قيسارية على يد معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-، وعاش ثمانية وسبعين عاماً حيث توفي سنة سبع وتسعين للهجرة.

ولد في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب بوادي القرى شمالي الحجاز، وهو منسوب إلى بكر بن وائل، ولقد كان أبوه من سبي خالد بن الوليد في موقعة عين التمر، ثم دخل ذلك الوالد في خدمة عبدالعزيز بن مروان ثم نال العتق.

أما الابن موسى فقد دخل في خدمة عبدالعزيز بن مروان بعد وفاة أبيه، ثم صار حاكماً لإفريقية، وغزا بعض الجزر من بينها جزيرة قبرص.

ولما ولّى الخليفة عبدالملك بن مروان أخاه بشراً على البصرة سنة ٧٣ للهجرة ألحق بخدمته موسى، وما إن وُلِّي الحجاج حكم العراق سنة ٧٥هـ

حتى أراد البطش بموسى إذ اتهمه بالاستيلاء على أموال البصرة، ولم ينقذه سوى عبدالعزيز بن مروان ذاته الذي ولاَّه على إفريقية، وكان ذلك نحو سنة ٨٩ للهجرة.

أفلح موسى، في إخضاع البربر بإفريقية، فسحق الثوارات ودوّخ قبائل زناتة وهوارة وكتامة وصنهاجة، وافتتح طنجة وولَّى عليها أخلص مواليه طارق بن زياد، ودخل البربر في جيشه بعد أن نشر بينهم دين الإسلام.

لم يتوان موسى عن مقاومة الرومان، فبنى دار الصناعة على أطلال مدينة قرطاجنة، وأنشأ أسطولاً لحماية الثغور، وبعث ولده عبدالله في الغزو، فغزا جزائر البليار وافتتح ميورقة ومنورقه، وهاجم الأسطول الإسلامي صقلية وسردينيا، وبسط المسلمون سلطانهم على شمالي إفريقية، ولم يبق للنصارى سوى سبتة، وكانت من أملاك دولة القوط الأسبان تحت حكم يوليان.

كان المؤسس الحقيقي لدولة القوط بأسبانيا يدعى (يوريك)، وقد بسط نفوذ القوط جنوبي الغال أو (فرنسا) باستيلائه على مرسيليا وبوردو وغيرهما من السواحل، لكن بعد حين انحسر نفوذ القوط فاقتصر على أسبانيا، وذلك بعد وفاة يوريك في موقعة عام ٥٠٧ الميلادي.

بعد حين اتخذ القوط مدينة طليطلة عاصمة لأسبانيا بعد أن غلب عليها غيطشة عام ٧٠٠ من الميلاد.

لكن ما لبث غيطشة أن خُلع من العرش بقرار من مجلس أعيان طليطلة حين أراد تولية ابنه الطفل (وقْلة) العهد، واختار المجلس للمُلْك لذريق دوق مدينة باطقة.

اشتعلت الثورة داخل أسبانيا، وأسرع حلفاء غيطشة إلى جليقية، ثم إلى سبتة وانضووا تحت لواء يوليان.

في ظل هذه الظروف أرسل يوليان حاكم سبتة إلى طارق بن زياد حاكم طنجة يقول له:

إني مدخلك الأندلس(*).

لقد قرر حاكم سبتة أن يذلِّل للمسلمين كل صعوبة، وكان له الفضل في انحياز حلفاء غيطشة إليهم.

وحين لقيت دعوة يوليان أذناً صاغية من طارق زاره يوليان بنفسه يعرض عليه أن يساعده ما وسعه الجهد في الاستيلاء على أسبانيا أو الأندلس لأجل الانتقام من لذريق.

وغالب الظن أن يوليان وحلفاء غيطشة حسبوا أن المسلمين سيدخلون الأندلس حباً في المال والجوهر، وأنهم ما إن يظفروا ببغيتهم حتى يسارعوا بمغادرة البلاد.

(*) راجع فتوح إفريقية والأندلس لابن عبدالحكم، ص٩٠، وما بعدها.

نشط طارق مولى موسى إلى الاتصال بمولاه بالقيروان يستأذنه في المبادرة إلى الفتح، سُرّ موسى بعرض يوليان، وكتب من فوره إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك يزيّن له الفكرة، فاشترط الخليفة أن يخوض موسى تلك الأراضي المجهولة بالسرايا على سبيل الاختبار، وألا يعرّض المسلمين لأي أخطار.

اختار موسى أحد كبار قواده: طريف بن مالك، وكنيته أبو زرعة على رأس سرية من خمس مئة جندي. كانت المهمة هي الاستطلاع، وسرعان ما زوّدهم يوليان بأربع سفن، ركبها الرجال، ولم يلبثوا أن نزلوا في جزيرة في رمضان سنة ٩١ للهجرة، الموافق شهر تموز من سنة ٧١٠ الميلادية، وسرعان ما أطلق المسلمون على تلك الجزيرة جزيرة طريف.

نشط موسى إلى العمل، فأرسل يستدعي مولاه طارق، وبعثه في سبعة آلاف رجل، كان طارق ضخماً، طويل القامة، أشقر الشعر.

أبحرت الحملة من ميناء طنجة في شهر رجب سنة ٩٢ للهجرة. (نيسان سنة ٧١١ ميلادية)، في السفن الأربع ذاتها التي وهبها يوليان للمسلمين.

اجتاز الجيش جبلاً اسمه كلابي، عرف بعد أن اجتازته القوة الإسلامية بجبل طارق أو جبل الفتح.

لقد كان لذريق مشغولاً في تلك الآونة بإخماد ثورة البلشكنس في مدينة بنبلونة، وما إن بدت طلائع الفاتحين المسلمين في الأفق حتى رحب بهم سكان أسبانيا الساخطين على لذريق وحكمه البغيض.

نشط طارق إلى إقامة قاعدة حربية لجنده ومرسى يصل بينه وبين سبتة، وأقام سوراً أسماه سور العرب.

ثم بعث طارق أحد قواده على رأس فرقة استولت على مدينة قرطاجنة، وزحف طارق بجنوده واستولى على ما يحيط بقرطاجنة وأقام بها قاعدة حربية.

وها هي قوات طارق تقاتل فرقة أسبانية قرب الجزيرة بقيادة القائد بنشو وتقضي عليها قضاء مبرمًا.

علم لذريق بالخبر فجن جنونة، فخرج في حشد كبير وجيش عظيم من مئة ألف مقاتل، هنا استنجد طارق بمولاه موسى فأمده بخمسة آلاف مقاتل.

والتقى الفريقان يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ للهجرة بوادي لكة قرب شذونة، واستمر القتال سجالاً ثمانية أيام، فانهزم القوط بأمر الله.. ونكص لذريق على عقبيه وفرّ من الميدان.

هللَّ المسلمون وكبروا لله سبحانه الذي رزقهم النصر المبين.

وزحف طارق على شذونة وحاصرها حصاراً شديداً وفتحها وغنم منها غنائم عظيمة.

وها هو جيش طارق قد زاد بمن وفد عليه من المسلمين من شتى أنحاء الأندلس فرحين بنصر الله لجنده.

وها هو طارق يدخل عاصمة القوط: طليطلة سنة ٩٣ للهجرة دون مقاومة.

وآثر طارق أن يقضي الشتاء في المدينة القوطية، بينما سيّر القائد مغيث الرومي على فرقة من جيشه فاستولى على قرطبة، وذلك بعد مخاطرة بطولية.

تاقت نفس موسى إلى الفتح، بعد أن أنهى إليه طارق أخبار الفتوح، فنشط إلى عبور الأندلس ليتم فتح جنوب الأندلس وغربه ولكي يحمى قوات طارق بالبلاد.

زحف موسى بالقوة الإسلامية من ثمانية عشر ألف مقاتل إلى جبل الفتح، فإلى الجزيرة الخضراء، قرطاجنة، ثم إلى قرمونة، وإلى إشبيلية فحاصرها، وفتحها، وإلى ماردة فحاصرها حصاراً طويلاً إلى أن دخلها صلحاً بعد عام أي سنة ٩٤ هجرية.

ثم بعث موسى ابنه عبدالعزيز إلى إشبيلية ليخمد ثورة أهل الذمة فيها. ثم أقامه والياً عليها..

والتقى القائدان موسى وطارق قرب مدينة طلبيرة.

اتخذ المسلمون طريقاً من ماردة نحو طليطلة، وهنا انتهز أتباع لذريق الفرصة، وكروا على موسى وجيشه، ووقعت المعركة الفاصلة الثانية بين المسلمين والقوط على طرف نهر تاجه، وانهزم القوط بأمر الله، وقتل لذريق في المعركة، وذلك في أيلول ٧١٣ ميلادية على يد مروان بن موسى بن نصير.

ولما وصل موسى وطارق إلى طليطلة بادر الأخير بتسليم قائده ما غنم من أموال وجواهر وكنوز.

وأرسل موسى إلى الوليد بن عبدالملك الخبر، فسجد لله شكراً، ثم ما لبث أن بعث يستدعي موسى إلى عاصمة الخلافة، فأسرع يلبي رغبة الخليفة مصطحباً طارقاً بعد أن استخلف ابنه عبدالله على إفريقية، وابنه مروان على طنجة، وابنه عبدالعزيز على إشبيلية.

لكن الله سبحان وتعالى لم يقدر لموسى أن يلقى الوليد بن عبدالملك؛ حيث توفي هذا الخليفة الطيب، وقام بالأمر من بعده أخوه سليمان بن عبدالملك!

ونعود إلى سيرة عبدالعزيز بن موسى بن نصير.

ما كاد ذلك الشاب يتولى إمارة إشبيلية حتى نشط يستكمل فتح البلاد غربي الأندلس، الآن وها هو قد غزا مالقه وغرناطة، وصالح أهل مرسية، وهزم صاحب قرطاجنة، ودخل بنبلونة سنة ٧١٨ ميلادية.

ثم انصرف عبدالعزيز إلى تنظيم أمورالبلاد وإدارة شؤونها.

لكن قادته نقموا عليه زواجه من أرملة لذريق المدعوة أيلة، وأنه أنجب منها ولده عاصماً فسميت أم عاصم.

وسبحان ربي العظيم فيما شاء وقدّر لعباده.

وقبل أن ننهي الحديث عن ذلك الفتح العظيم نلفت النظر إلى الهزيمة التي مُني بها المسلمون بعدئذٍ في بلاد فرنسا بالأندلس، تلك الهزيمة التي مُني بها جيش الإسلام في مواجهة جيوش أوربا بقيادة شارل مارتل سنة ١١٤هـ (٧٣٢ ميلادية).

كانت الإمارة بدولة الأندلس قد انتهت إلى عبدالرحمن الغافقي سنة ١١٢ للهجرة أي سنة ٧٣٠ للميلاد.

كان عبدالرحمن رجلاً حازماً تقياً غيوراً على الإسلام وأهله، ونهض بوحي من عقيدته القوية إلى الغزو لنشر كلمة الله في الأرض.

انطلق عبدالرحمن من عاصمة بلاده قرطبة يعد جنده للغزو ويزين لهم الشهادة في سبيل الله والجهاد لنشر كلمة التوحيد.

خطبهم في المساجد، وتنقل في رحاب الأندلس يدعو ويستنفر، فأقبل إليه المجاهدون من كل حدب وصوب.

قاد الغافقي جنده يجتاز جبال البرانس ليفتح بلاد الغال أو (فرنسا).

لكن قوى أوربا كلها تربصت بجيش الإسلام الدوائر، وحشدت له أوربا النصرانية أقوى الجيوش.

وكان قائد جيوش الفرنجة شارل مارتل، الفرنسي، والتقى الفريقان، وطوقت قوى البغي والغدر جيش الإسلام.

وأصاب سهم غادر القائد المسلم في مقتل، فقضى شهيداً في بلاط الشهداء سنة ١١٤ للهجرة، ٧٣٢ للميلاد.

وانهزم جيش المسلمين.

وتوقف مد الفتوح إلى حين.

إذ قدر الله سبحانه للإسلام بعد ربع قرن من الزمان أن ينتصر على قوى البغي، وأن ترتفع راية الإسلام خفاقة في ربوع الأندلس، على يدي صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية سنة ١٣٨ للهجرة.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ..﴾.